أمجد توفيق

نجوم الثلج الآتية

المرأة :

كل شيء هادىء .. الرياح .. الاشجار .. حتى الطيور تركت اجنحتها مفتوحة لتنساب في الفضاء بهدوء وصمت . حينها شعرت المرأة بالبرودة تسري الى أوصالها وذرات الخوف تترسب في قلبها ، فتذكرت حديثها مع زوجها حين رحل .. قال :

ـ عندما يحترق كل شيء لا يشعر المرء بالخوف ، فالنار لا تدع الخوف يترسب في القلب ..

ـ اني خائفة لا تذهب ..

ـ عيون الشيخ مزروعة في جدران كل بيت ..

ـ لا تذهب ..

ـ متى كانت الحرب تدع الفرد منا يتحكم في سلوكه ؟ فانا ايضا لا اريد ان اموت ..

ـ الجنود يتجولون في الطرقات ، وأنا وحيدة ..

ـ لا تخشي شيئا .. انهم مثلنا غير متحكمين في سلوكهم ..

أفاقت من تأملاتها حين سمعت صوت طرقات خافتة على الباب .. فتحته ، فدلف جندي طويل وأغلق الباب وراءه ..

دهشت المرأة ، كانت نظراتها أسئلة متلاحقة تصفع وجه الجندي الذي أخذ يعبث ببندقيته ..

ـ ماذا تريد ؟!

قال الجندي بتردد :

ـ أنا أكره الحرب .. وجئت كي أتحدث معك ..

تأملت المرأة وجه الجندي ، وجدته مشابها لوجه زوجها .. الجبين المتعب .. النظرة الصارمة .. الحزن الذي يغلف وجهه .

سألته برقة :

ـ هل تشعر بالخوف ؟

حدق الجندي في عينيها ، شعر انها تعرف الكثير ، ابتسم ثم قال :

ـ لا أعرف . فأنا لست ممن يختارون الحروب ..

صرخت :

ـ من يختار اذن ؟

ـ . . . . .

ابتسمت ، فتقدم الجندي حتى لامست أصابعه شعرها الطويل . نظر اليها وقال :

ـ أنت جميلة ..

لم تقل شيئا ، لان انفاس الجندي كانت تلفح بشرتها الرقيقة وهو يمتص رحيق النرجس والازهار البرية من شفتيها .. بعدها شعرت انها تعدو في عالم يصبح فيه الخوف والحرب لوحات تلهب جو المكان بأحاسيس ترقص فرحا .. حبا .. موتا ..

* * *

قالت المرأة للجندي :

ـ يجب أن تذهب ..

ـ لماذا ؟

ـ شعرت بالاطمئنان ..

ـ متى تكونين خائفة اذن ؟

ابتسمت المرأة وهي تقول :

ـ لا أعلم ، اذهب ..

ـ أريد ان أبقى هنا ..

ـ اني متزوجة ..

ـ لم أفعل شيئا ..

ـ لك وجه صياد ، هل تعرف أغاني الصيادين ؟

ـ لا ..

ـ اسمع اذن ..

كان صوتها يحمل عبق الارض والثلج .. عميقا بعيدا كالسماء .. شامخا كالجبل .. ملتهبا كالحرب :

لان الوحوش المفترسة تخشى الصيادين
يرقص الحجل وحده ..
لان صوته جميل ، يهمي الثلج
فانا بانتظار نجوم الثلج الآتية .

الرجل :

الصيد .. الموت .. الرياح التي تكاد تقتلع أشجار الصنوبر .. السقوط في الانهار عند نقل الجثث .. كلها أمور اعتادها فقد لديه شعور الدهشة والتحمس .. ولا شيء غير الانتظار واحراق كمية اكبر من التبغ ..

حوله كان الرجال جالسين ، ينظرون الى صخور الجبل الذي يفصلهم عن القرية .. قفز أرنب بري من وراء صخرة واخذ يعدو صوب النهر .. ضحك الرجل طويلا .. سأله أحدهم :

ـ ما بك ؟

أشار الرجل الى الارنب ثم قال :

ـ كنت احبس أنفاسي بانتظار صيد كهذا .. وهو الآن يجري أمامي ..

انتبه الرجل الآخر فسقط كيس التبغ من يده ، تناول بندقيته وصوبها في اتجاه الارنب الواقف عند ضفة النهر ، ثم أطلق النار .. ارتفع صدر الارنب عن الارض وصار مواجها لحلقة الرجال الجالسين ثم سقط في الماء ، فأخذ التيار يجرفه حتى غاب عن عيون الرجال ..

سأل الرجل :

ـ لماذا قتلته ؟

لم يجبه الرجل الآخر ، بل اكتفى بالنظر الى بقية الرجال الذين اندهشوا .. فاحنى رأسه . كان يعلم جيدا ان الاسئلة شيء غير معروف عندهم .. الاسئلة ملك الشيخ وحده ..

من بعيد كان وقع حوافر جواد يسمع .. امتدت أيدي الرجال الى البنادق .. كل شيء يجري بآلية تامة .. نظر الرجل الى اصابعه المتقلصة ، نهض ، فنظر اليه الرجال ، قال :

ـ سأتسلق هذه الشجرة .

بان الفارس وأخذ يلوح لهم بمنديله ، لامست فوهات البنادق الارض بوجوم ، ولوّن الغضب تعابير الوجوه ..

ـ سمعت صوت رصاصة ؟

ـ . . . . .

ـ متى تكفون عن لهوكم ؟

قال الرجل وهو يكسر أحد أغصان الشجرة التي تسلقها :

ـ انه الانتظار . اجلس .

ـ طلب الشيخ أن أصطحبك اليه ..

لم يقل شيئا ، لان مقابلة الشيخ تعني بالنسبة له الاستعداد لمواجهة المشاكل بالاتفاق مع الموت .. سار الرجل ، ثم التفت وودع بقية الرجال بنظراته .. واتجه حيث مقر الشيخ ..

شعر ان الاشواك والاحراش المنتشرة على جانبي الطريق تزداد قسوة وهو يزيحها بيديه .. تذكر طفولته أيام كان يتسلق الجبل ، ذا الجبل الذي يفصله عن القرية ، كان سريعا لذا كانوا يلقبونه بالحجل .. كانت الذكريات وهجا يسطع أمام عينيه المتعبتين ، ومن حين لآخر كانت عيناه تصطدمان بعيون الرجال المنتشرين حول المقر ، فتنتقل نظراته الى بنادقهم السريعة الطلقات التي تختلف عن بندقيته القديمة فيهمس :

ـ انهم حراس مقر الشيخ .

بعدها غامت عيناه وشعر ان آماله الحبيسة في صدره تصل يورق غضبا ..

الشيخ جالس في صدر الغرفة المنحونة داخل صخور الجبل .. وحوله جلس الرجال بخشوع .. وما بين العين والعين تهمي الرهبة..

دخل الرجل ، التقت عيناه بعيني الشيخ الذي قال :

ـ انني أعتمد عليك .

تفحص الرجل الرجال الجالسين ، كانوا معجبين بالشيخ وقدرته ، يراقبون حركات شفتيه .. لم يقل شيئا .

ـ ما هي أخبارك عن القرية ؟

شعر الرجل بأن شيئا يحدث (الشيخ يعتمد عليه ويسأله عن القرية . لماذا ؟ عيونك أيها الشيخ مزروعة في جدران كل بيت ، وتسألني عن القرية) قال :

ـ لم أذهب اليها قبل أشهر ..

ـ وزوجتك ؟

فكر الرجل (آه ، هنا يكمن السؤال عن القرية .. ما بها أيها الوغد ؟) قال :

ـ انها تأتي أحيانا ..

ـ وكيف تعيش ؟

فكر (عندما طلبت مني الالتحاق بكم أما كنت تفكر بزوجتي ؟ وهل من جديد كي تسألني عنها ؟ لم أتعود ان اكون جبانا ولكنني كنته اليوم أمامك) .

ـ . . . . .

قال الشيخ بغضب :

ـ انها تؤوي الجنود ..

حين خرج الرجل لم يبق في ذاكرته الا ان مسدسا القي على صدره وصوت الشيخ يدوي في أذنيه :

أقتلها .. أقتلها .. أقتلها ..

انني أعتمد عليك .

الثلج :

تسلق الرجل الجبل الذي يفصله عن القرية .. كان يعرف صخوره جيدا .. فكر في رحلات الصيد والاصدقاء والنهر ، فكر بكل شيء كي لا يفكر بأي شيء .. أحاسيس متضاربة تنتابه ، يهمي الحزن كالضوء يعريه.. يرسم أمام عينيه صور الزوجة .. الشيخ .. الجنود. شعر انه ذهب ضحية أحزان لم يكن له مهرب منها ، فهمس بصوت خافت :

ـ انها الحرب ..

عندما اقترب من القرية كان الهواء باردا والبيوت متناثرة بكآبة على السفح .. الظلام دامس وأنوار البيوت مطفأة تحكي قصة القهر الطويل الذي عانته .. شعر الرجل بحنين جارف الى زوجته ، الى الحفل ، الى البيت ، الى القرية كلها التي هجرها تنفيذا لاوامر الشيخ ..

أصوات الكلاب قطعت عليه تأملاته .. فهرب متسترا بجدران البيوت .. قفز على سطح بيته وأخذ يزحف على بطنه .. رائحة التراب تزكم انفه .. والدموع تتساقط من عينيه . نزل بهدوء الى ساحة البيت ، رأى ضوء الفانوس المعلق في الغرفة .. كانت زوجته نائمة وعلى وجهها العذب قرأ ذكرياته معها عندما أراد ان يخطفها حين رفض والدها زواجه بها ، كانت مستعدة للموت معه .. لكن رجال القرية تدخلوا فوافق الوالد .. تحسس موضع المسدس ثم أخرجه ، أغمض عينيه وأراد ان يغير رأسها .. لكنه تراجع ، تذكر الشيخ ..

انني أعتمد عليك ..

أعتمد عليك ..

انني ..

الشيخ .

وبرفق وضع راحته فوق جبين زوجته .. صرخت .. أسرع فوضع يده على فمها وهمس :

ـ أنا زوجك ..

نهضت ، ولما رأته قربت الفانوس وتأملت ملامحه .. تذكرت الجندي ففزت وقالت :

ـ أجائع أنت ؟

كان الصمت يكفنه ..

ـ ما الذي جاء بك ؟

ـ . . . . .

شعرت ان سيلا ينوهج في عينيه فتراجعت الى ان أصبح ظهرها لصق الجدار .. تعدم الزوج .. أمسكها من ضفيرتها الطويله ورماها على الارض .. صرخت .. هددها .. كان الفزع يلون وجهها الصغير العذب وهي ترتعش بين يديه .

ـ أنت تؤوين الجنود ..

ـ أنا ؟ من قال لك ؟

عندها تمثلت صورة الشيخ أمام عينيه ، صرخ :

ـ أيها الشيخ . يا رعبا يتملكني وقيدا يسكنني ، ارفع يدك ، كل شيء يذكرني بك ، سأقتلك ..

قالت المرأة :

ـ لم أفعل شيئا ..

ـ أنت ؟

ـ كنت وحيدة وخائفة .. لماذا رحلت ؟

ـ . . . . .

ـ لماذا ؟ انني أموت كل يوم ، وأنت مع الشيخ .. لماذا ؟

ـ يجب أن أقتلك ..

ـ أنت جبان .. نفذ أوامر سيدك .

شعر انه يتعرى أمام انسياب الغضب من مقلتي زوجته ، دارت عيناه في أرجاء الغرفة .. سقط المسدس من يده ، وارتمى على السرير .. تقدمت الزوجة بهدوء ، رفعت رأسه ووضعته على صدرها ، كانت أصابعها تمسد شعره الكث .. فتح عينيه ، سقطت دموع زوجته على وجهه ، شعر بخدر لذيذ .. وناما معا .

استيقظا على صوت الثلج وهو ينقر زجاج النافذة .. نهض الزوجان واقتربا من النافذة ، أخذت أنفاسهما الحارة تلمس الثلج على النافذة .. أغمض الثلج عيونه وانسحب كفتاة عذراء .. ومن خلال البقعة التي انسحب منها الثلج بان الافق . كان مدى من الثلج يكسو كل شيء .. يغسل كل شيء ..

وكان الربيع طائرا يقرع كل الابواب ..

الموصل — أمجد توفيق